تقديم

لم يكن فى حسبانى حين بدأت منذ سنوات، الكتابة عن أبى عبيدة ابن الجراح، وعبقريته الفذة فى إنكار ذاته، حتى صار عنوانًا للكل فى واحد، أو تعبيرًا عن كيف يكون الواحد للكل.. لم يكن فى حسبانى أن تستغرق منى المهمة الوقت الطويل الذى استغرقته، والذى جعل يمتد كلما تصورت أننى أشرفت على الانتهاء منها، ثم يردنى الإشفاق من احتمال القصور، أو الأمل فى بذل المزيد، عن الفراغ من هذه المهمة التى أقدمت عليها محبًّا لها راغبًا فيها عاشقًا لصاحب السيرة التى أكتب عنها.. ويبدو أن ذات هذا العشق لهذه الشخصية الفذة التى استمتعت بمتابعة سجاياها ـ هو السبب فى طول ترددى وإشفاقى. بل خوفى من العجز أو القصور عن تحقيق الغاية فى الوفاء بجوانب العظمة فى شخصية هذا الصحابى الجليل الذى عاش حياته منكرًا لذاته فى سبيل الكل، منصرفًا عن كل مظاهر العظمة التى أتته شواهدها هينةً لينة ـ كطبعه ـ دون أن يشغل نفسه بها أو يهتم بأى مظهر من مظاهرها!.

وربما أسهم فى هذا الإشفاق، أن هذه الشخصية الفذة الفريدة لم تلق العناية التى تستحقها فى كتابات المؤرخين والأدباء والمفكرين، فصار الوفاء بحقها أوجب لملء الفراغات الجديرة بلفت الانتباه إليها.

أبو عبيدة بن الجراح، رجل قليل الكلام كثير العمل، يقبل هارعًا سباقًا إلى الصعاب والنوازل حين يتمهل أو يتراجع آخرون.. يتقدم الصفوف فى البذل والمخاطرة والفداء، ويتوارى حتى يكاد لا يراه أو يلتفت إليه أحد، حين تحين ساعة الإطراء أو المديح أو الأنفال. يسابق إلى حل الأزمات والمعضلات، ويحتجب عن طلب الصدارة بل يبعدها عنه حين يلحون عليه بها.. رجل أغناه داخله عن طلب الظهور فى عيون غيره.. لا يستهويه ما يستهوى الناس من الاستعراض

أو طلب الصيت أو الرئاسة أو الصدارة أو لفت الأنظار.. يعزف عزوفًا لافتًا عن الصغائر حتى ليقول فيه النبى عليه الصلاة والسلام حين يتحدث عن الراغبين فيها: «إلّا أبو عبيدة»!.. يبذل سخيًا من نفسه، يؤثر غيره ويقدم سواه على ذاته حتى ولو كانت به خصاصة.. يعارضه عمرو بن العاص وينازعه القيادة فى ذات السلاسل، مع أنه الأسبق إسلامًا والأكبر مكانة ومنزلة، فلا تنازعه نفسه، ولا يبالى باعتراض كبار الصحابة الذين أُرسلوا مددًا تحت قيادته، ولا يتذكر إلّا وصية رسول الله ﷺ إليه: «تطاوعا ولا تختلفا». ـ فيترك عَمْرًا و ما يريد، ولا يقول له إلاّ: «إن عصيتنى طاوعتك». ينال باللين والرفق والكلمة الطيبة وقوة الحجة ووضوح المنطق ـ ما لا يناله غيره بالعنف أو الخشونة أو المناهضة.. يوصى به الصديق أبو بكر فيقول لمن سألوه النصيحة: «عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظُلم لم يَظْلم، وإذا أُسىء إليه غفر، وإذا قُطِعَ وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين.. عليكم بأبى عبيدة بن الجراح».. يختار أبو بكر لتزكيته هذه الصفات التى يجمعها الرفق، لأنه عرف أن تأثيره العظيم نابع عن لينه ورفقه ورقته وتواضعه، وكيف يمتلك بحكمته وسجاياه ما يستعصى على عتاة الأشداء.. يأبى أن يَظْلم أحدًا وإن ظُلم، ويسبقه صفحه وغفرانه إلى من أساء إليه.. ينصرف متعففًا مستغنيًا عما يتكالب عليه الناس، غناه فى داخله.. لا يلتفت إلى مظهر أو بهرج أو جاه أو ترف أو نعيم.. يقترح عمر بن الخطاب مبايعته بالخلافة يوم سقيفة بنى ساعدة، فينهره أبو عبيدة، ويعاود رفضه إياها حين جاء أبوبكر ورشحه هو أو عمر بن الخطاب لها.. يرى عمر بن الخطاب متاعه الخشن وهو أمير الأمراء لجند الشام فلا يملك عمر ـ وهو الشديد ـ إلّا أن تنثال عبراته إشفاقًا وإعجابًا وعرفانًا بهذا الصاحب العظيم فى بساطته وتعففه وزهده.. يسأل عمر وهو أمير المؤمنين، يسأل مَنْ حوله عما يخالجهم من الأمانى، فيطلق كل منهم عنان خواطره باحثًا منقبًا عما يداعبه من الأحلام والأمنيات، ويحين دور الفاروق عمر، فلا يتمنى إلّا بيتًا يملؤه رجال كأبى عبيدة بن الجراح.. وكيف لا،

وقد شاهد وعاين مناقبه التى لا تقع تحت حصر، ورأى إيثاره وإنكاره الرائع لذاته، وجهاده المخلص الطويل فى سبيل دعم الدين وصد الهجوم الذى تواضع المشركون واتفقوا عليه، وكيف لا وقد رأى بعينيه شهادة النبى ﷺ، وإيثاره له، حين أراد وفد نجران أن يبعث معهم أمينًا يرشدهم فيما يختلفون فيه، فيعدهم عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم «أمينًا ـ حق أمين».. فلما حان وقت الاختيار، وأشرف الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر.. يأمل كل منهم أن ينال شرف هذه الشهادة النبوية، ويكاد بعضهم يلفت إلى نفسه، فلا يختار عليه الصلاة والسلام سوى أبى عبيدة بن الجراح، فيبعثه معهم، حتى قال عمر: «فذهب بها – بهذه الشهادة ـ أبو عبيدة». فيه كان رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

هذا الرجل أتته دلائل وآيات العظمة من كل جانب، فأبى إلّا أن يقدم عمله، ويؤثر على نفسه ويتوارى بذاته، حتى ليقول لأجناده بالشام: «ما من أحد يفضلنى بتقوى، إلّا وددت أن أكون فى إهابه».. أحبه الرسول عليه الصلاة والسلام وأحبه صحابته، وأحبه المسلمون، اجتمعت فى خصاله وسجاياه عبقرية الإيثار وإنكار الذات، فبذل حياته للكل، وصار عنوانًا للكل فى واحد.

رجائى عطية